تأثير التجارة على الامن الاقتصادي في بلاد الرافدين القديمة

محمد طالب رشيد

أ.د عادل شابث جابر

جامعة بغداد – كلية الآداب

قسم التاريخ

The impact of trade on economic security in ancient Mesopotamia

Mohammed Talib Rashid

Prof .Dr. Adil Shabith Jabir

University of Baghdad College of Arts

تأثير التجارة على الامن الاقتصادي في بلاد الرافدين القديمة

محمد طالب رشيد

أ.د عادل شابث جابر

الملخص :

لم تكن شهرة بلاد الرافدين بالتجارة اقل مما هي علية بالزراعة والصناعة، فقد كان لموقع بلاد الرافدين أثر مهم في نشؤ وتطور التجارة ، لذا ابتكر سكان هذه البلاد تدابير أمنية كفيلة لتنشيطها وازدهارها،مثل تأمين الطرق التجارية وحمايتها، ونشر عناصر الأمن على الطرق، واقامة مستعمرات تجارية ، واستخدام انظمة دقيقة في ضبط الموازين والمكاييل، فضلاً عن فرض الضرائب التي كان ذات تأثير مهم على تنشيط حركة التجارة.

Abstract:

Mesopotamia's reputation for trade was no less than in agriculture and industry, the location of Mesopotamia had an important impact on the emergence and development of trade Therefore, the people of this country have devised security measures to stimulate and prosper, such as securing and protecting commercial roads, deploying security personnel on roads, and establishing commercial colonies,

The use of accurate systems in the control of scales and measures, as well as the imposition of taxes that had an important impact on the revitalization of trade.

المقدمة:

يعرف الأمن الاقتصادي بأنه التدابير التي تتخذها الدولة من أجل حصول الفرد على متطلباته الاساسية ،وضمان انعاش اقتصادها، والذي يؤدي إلى استقرار الاقتصاد (مصنوعة، ٢٠١٦،ص٧٢).

ادرك ملوك بلاد الرافدين ما مقدار الذي يلعبه النشاط التجاري لذلك قاموا بالعديد من التدابير من ازدهار التجارة ومن بين تلك التدابير ، تأمين الطرق وحمايتها وانشاء قواعد وحاميات عسكرية ووسائل للراحة تؤمن سير القوافل التجارية ،فلا يوجد نشاط لتجارة بدون تأمين الطرق وادامتها حتى اضطر ملوك بلاد الرافدين من السيطرة على الكثير من المدن والدول المجاورة من اجل تأمين الطرق التجارية(سليمان،١٩٨٣،ص١٩٥).

أما المكاييل والموازيين فقد أسهمت هي الأخرى في استقرار الاقتصاد فعمل ملوك بلاد الرافدين بتدابير عدة لعل من اهمها، توحيد الموازين والمكاييل وتعيين مراقبين عليها ، ومحاسبة المتلاعبين بها ، حتى انهم ربطوها بمعتقداتهم الدينية فقد اعتقدوا ان التلاعب بتلك الأوزان يؤدي إلى عواقب وخيمة من الالهة ، ولا يغفل دور الضرائب المساهم في انعاش الوضع الاقتصادي إذْ عملت تلك الضرائب في انجاز العديد من المشاريع العامة وتجهيز الجيوش وتقليل الضغط الاقتصادي، كما ان ملوك بلاد الرافدين كانوا على دراية بالوضع العام في دولتهم فعملوا على خفض الضرائب في أوقات الازمات والكوارث وغيرها. وفيما يأتي اهم تلك التدابير التي اقاموها :

أولاً: تأمين وحماية الطرق التجارية :

تُعد الطرق التجارية عاملاً رئيساً في تطوير حركة التجارة الخارجية والداخلية وادامتها، وتشير النصوص المسمارية ان بلاد الرافدين كانت ترتبط بالأقاليم الخارجية بطرق عدة تسلكها القوافل التجارية وغير التجارية منذٌ أقدم العصور، وكانت تلك الطرق بمثابة الشريان النابض الذي أسهم بربط بلاد الرافدين مع البلدان الأخرى(

الجميلي، ٢٠١١،ص٩٩)، ومن ابرز تلك الطرق هي الطريق الاول الذي يربط بلاد الرافدين مع الاقاليم الشرقية، و بلاد عيلام، وقد شجع هذا الطريق على ازدهار التجارة مع المناطق الشرقية عامة وبلاد عيلام خاصة (الدليمي، ١٩٨٨،ص٢٨)، اما الثاني هو الطريق الغربي الذي يربط بلاد الرافدين مع سوريا القديمة وسواحل البحر المتوسط، وعد هذا الطريق عد من انشط الطرق التجارية ، ولاسيما في العصر البابلي القديم، كما انه كان امتداد طبيعي لبلاد سورية القديمة(ابو العاصي، ٢٠٠٢،ص١٨٣)، والطريق الثالث يربط بلاد الرافدين مع الجهات الشمالية إلى بلاد الاناضول(الحمداني، ٢٠٠٢، ص٢٨)، مرورا بالمستعمرات التجارية ولاسيما مدينة كانيش[١]، والطريق الرابع الذي يربط بلاد الرافدين مع مدن الخليج العربي، وكان هذا الطريق اقل أهمية من سابقيه ،إذْ ان الطرق النهرية كانت تُعد الطرق الرئيسة التي تربط بلاد الرافدين مع الخليج (العكيلي، ٢٠٠٨،ص٢٢).

لذلك عُدتَّ الطرق التجارية عبر تاريخها القديم عصب الحياه الاقتصادية والعسكرية ،وهو ما تطلب من ملوك بلاد الرافدين ومنذٌ اقدم العصور القديمة بذل الجهود في تأمينها وحمايتها ، ووضع القوائم الجغرافية لتحديد مسالكها وارشاد المسافرين(الحمداني، ٢٠٠٢،ص٢١)، وكما انهم ادركوا ان لا سبيل امامهم في تأمين مستلزمات مدنهم وقصورهم من السلع والمواد التجارية ألا بوجود طرق واسعة ومحمية بالكامل بقواعد وحاميات عسكرية تؤمن سير القوافل التجارية وتأمينها من الحوادث والعوائق التي قد تؤثر على النشاط التجاري والاقتصادي بصورة عامة (سعيد، ٢٠٠٨، ص٢٦١)، لذلك عمل الملوك السومريين على تأمين تلك الطرق، ولاسيما ما قام به ملوك سلالة لكش من دعم لتلك النشاطات عن طريق توفير الأمن والحماية لمختلف الطرق التجارية سواء كانت برية أم بحرية (Lemans,1977m,p3).،وصل بهم الحال إلى سيطرتهم لمعظم المدن السومرية من أجل تأمين الطرق التجارية التي تربط مدنهم مع الاقاليم المجاورة ،كما فعل الملك لوكال زاكيزي (٢٤٠٠–٢٣٧٠ق. م) الذي أمن تلك الطرق حتى وصل إلى البحر العلوي (ساكز، ١٩٩٧،ص٣٠٨).

وفي العصر الأكدى شرع الملك سرجون الاكدي (٢٣٧١-٢٣١٦ ق. م) إلى تأمين الطرق التجارية وذلك عن طريق تخصيص موظفين تابعين للقصر، مهمتهم تقتصر على حماية الطرق ومراقبة القوافل التجارية (Leemeans,1954,p8-9)

كما ان الملك نرام سين (٢٢٩١ – ٢٢٥٥ ق. م) قد أوكل للعديد من الرجال التابعين له بحماية الطرق التجارية التي تربط بلاد الرافدين مع بلاد الأناضول ،من هجمات السراق ،وتأمينها من الثلوج التي كانت تعرض حياه التجار للخطر رشيد، ١٩٩١،ص٦٥)، فضلاً عن الثورات التي اندلعت في اثناء حكم هذا الملك، كان لها تأثير في سير القوافل التجارية ، حتى وصل الحال إلى منعها نهائيا من الوصول إلى بلاد الرافدين، لذلك عمل نرام سين على اخماد تلك الثورات لا لسبب ، وانما بغية الاستقرار وتأمين تلك الطرق مصدر نفسه ،ص٦٦).

اما في عصر سلالة اور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٤ق. م) أهتم الملك اور نمو(٢١١٢ – ٢٠٩٥ق.م) في تأمين الطرق التجارية وتعيين حراس عليها دائمين عليها،"**السنة التي بني فيها طريق نفر بانتظام ، السنة التي انشأ اور نمو الطريق بانتظام من الاسفل إلى الاعلى** " ويوضح هذا النص مدى الأهمية التي شكلها تأمين الطرق عند الملك اورنمو(RIME ,VOI.32,P. 96).

ولم تكن الطرق التجارية البرية وحدها التي استرعت اهتمام الملك شولجي ، بل كان للطرق النهرية نصيب من ذاك الاهتمام ، وذلك من خلال انشاء مراكز اشبه بالقلاع على طول ضفاف نهر الفرات، من أجل تأمين الطرق لمستخدميها(الراوي، ٢٠١٢، ص٢٦٢).

كما شهد تأمين الطرق وحمايتها في العصر البابلي القديم (٢٠٠٦-١٥٩٥ق.م) تطوراً ملحوظاً ،إذْ سعى ملوك الممالك في العصر البابلي القديم إلى عقد تحالفات عدة، من أجل تأمين تلك الطرق وحمايتها(سليمان، ١٩٨٥،ص ١٣٢)،ويستدل من ذلك طلب الملك الاشوري شمي ادد الاول (١٨١٣- ١٧٨٢ ق.م) من الملك حمورابي حماية قافلة تجارية اشورية في طريق عودتها من دلمون

إلى ماري، وبعد موت الملك شمشي ادد وتولي ابنه شمشي داكان السلطة ، الذي لم يكن بمستوى قوة ابيه، فقد دب الضعف في مملكة اشور حتى أنهم فقدوا السيطرة على لطرق التجارية التي مثلت العصب النابض في اقتصادهم، مما فسح المجال إلى قبائل التروكين ، من السيطرة على تلك الطرق، وثمة اشارة نصية من شمشي داكن (١٧٨١- ١٧٤٢ ق.م) إلى أخيه يسمح أدد توضح ما قامت به هذه القبائل من عرقلة لتلك الطرق، إذْ يوضح النص الاتي:" **إلى يسمح – ادد قل ما يلي .. هكذا يقول اخوك اشمي دكان بخصوص اخبار التروكين كتبت الي، رجال التروكين الذين اثاروا على البلاد مدينة تكوناتم في السابق.....اصابهم الجوع حتى بلاد مدينة اور بازوتم القرية التابعة لمدينة قتل كل العائدين لتلك القرية واهالي القرية واخذوا ممتلكاتهم وسيطروا على طرق لتجارة ، على الرغم من معاهدة السلام معهم الا ان رجال التروكين اخذو الطعام لمدة خمس ايام** "(ARM,NO,151,P1-5.) .

وبعد توحيد البلاد تحت حكم الملك حمورابي(١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) اولى أهمية كبيرة لحماية الطرق التجارية وتأمينها، بقيامه بتدابير عدة منها، ربط اجراء مملكته بشبكة واسعة من الاتصالات، مما سهل علية التنقل، واهتمامه بوسائط النقل [٢]، فضلاً عن اقامة طرق نقل ، وتشييده محطات تجارية عليه ، ووضع قوات أمنية تؤمن سير القوافل التجارية (علي، ٢٠١٤،ص١٤٠) فلم تُعد الحاجة لوجود قوات مسلحة تصطحب تلك القوافل (الحلو ،١٩٩٩، ص٦٨).

اما في العصر البابلي والاشوري الوسيطان نجد الملوك الكيشيين كانت لهم علاقات تجارية مع بلاد مصر القديمة، إذْا يشير احد النصوص إلى طلب الملك الكشي بورنا بورياش الثاني (١٣٧٥-١٣٤٧ ق.م) ، من الملوك المصرين حماية القوافل التجارية وتأمين الطرق للوصول إلى بابل إذْا تشير الرسائل من بورنا بورياش الملك الكشي إلى اخناتون (امينوفيس الرابع) الفرعون المصري ، يذكر فيها ان القافلة التي ارسلها قد نهبت ،ويذكر له اسماء الذين تعرضوا للقافلة في فلسطين ساكز، ١٩٧٩،ص٩٤)، التي كانت تابعة لمصر ويرجو الملك البابلي من الملك المصري

ان ينظر في المسألة، وان يؤمن تلك الطرق ويعوض الخسائر التي تكبدها التجار البابليين(King, 1919 , p 225).

اما بلاد اشور فان ملوك العصر الاشوري الوسيط اتخذوا تدابير عدة من أجل تأمين الطرق التجارية ،وتحقيق اهدافهم الاقتصادية، وخلال السنوات القليلة تمكنوا من ترسيخ اعمالهم ببناء نظام اقتصادي متين من خلال إخضاع المدن والأقاليم والقرى المجاورة لهم ، الامر الذي جعل تلك الأقاليم والمدن تدين لهم بالتبعية والولاء(ساكز، ٢٠٠٢، ص١٣٥)، لذلك نجد أن تأمين الطرق كان واضحاً في كتابات هؤلاء الملوك الذين عملوا بدورهم على تأمين الطرق للوصول إلى مناطق لم يسبق لاحد قبلهم ان يصلوا اليها، لوعورتها وصعوبة اجتيازها (Maxwell 1974, p. 144)، فالملك الآشوري توكلتي – ننورتا الاول (١٢٤٤ – ١٢٠٤ ق.م) يشير في احدى حملاته العسكرية على الممالك الحثية إذْ يقول: "**مع فائق قوتي فاني غالباً ما اجتزت الجبال القوية والسلاسل الصعبة والطرق التي لم يكن ملك اخر يعرفها ، قطعت في جبالهم بواسطة المعاول النحاسية ووسعت طرقهم غير السالكة** " (45 – 40 , 272 , P , 1 , Vol , RIMA.)

وهكذا ركز الملوك الآشوريون جهودهم على جعل الطرق التجارية أمنة، ولاسيما من الجهات الغربية والشمالية الغربية ، لكونها تُعد امتداد طبيعي لبلاد سورية القديمة، سواءً من خلال التدخل العسكري المباشر بقيادة حملات عسكرية،أو بدعم الحكام والملوك الموالين لهم واقامة الحصون ،وابقاء الحاميات العسكرية وبناء مقاطعات ومدن جديدة تحت ادارة آشورية مباشرة ،فضلاً عن تهجير أعداد كبيرة من سكان الاقوام والشعوب التي تهدد تلك الطرقكما في النص :"**ان الاخلامو قد جعلوا الطريق بين المملكتين حافلا بالاخطار**"(جاسم، ٢٠٠٠، ص٢٨).

ثانياً: المكاييل والموازين [٣]:

عُدتَّ الموازين والمكاييل من الأنظمة المهمة التي تسهم أسهاماً كبيراً في استقرار الاقتصاد، كما ان العناية بها ومراقبة دقتها وثباتها ومحاسبة المتلاعبين

بهـا مـن العوامـل التـي تسـاعد علـى تنشـيط الحركـة التجاريـة وانتعـاش الحيـاة الاقتصـادية بصـورة عامـة ، كمـا ان تلـك الامـور تعكـس دقـة الأنظمـة الاقتصـادية السـائدة فـي المجتمـع ونضـوجه، وقـد عنـي ملـوك بـلاد الرافـدين منـذٌ اقـدم عصـورهم التاريخيـة بتلـك الـنظم وانعكـس ذلـك علـى قـوانينهم التـي شـرعوها بغيـة منـع ومحاسـبة المتلاعبين (سليمان، ١٩٨٨،ص٢١٦).

ان الحاجـة التـي دعـت إلـى ايجـاد هكـذا نظـام نتيجـة تطـور الحيـاه العامـة، ونتيجـة تـدهور الحالـة الاقتصـادية ايضـاً ، وأقـدم ذكـر لهـا كـان فـي النصـوص المسـمارية وردت فـي اصـلاحات الملـك اورانمكينـا نتيجـة تفشـي الفسـاد والفقـر فأعـاد إلـى مدينـة لجـش التـوازن الاقتصـادي والاجتمـاعي ، ورفـع الظلـم عـن كاهـل النـاس مـن خـلال اصـلاحاته الاقتصـادية(ديـاكنوف، ١٩٨٥،ص٢٩٠)،كمـا جـاء فـي الـنص الآتـي : "**هـذا مـا أمـر بـه الملـك اوروكاجينـا ، مـن أجـل مـواطن مدينـة لكـش الـذين عاشـوا حيـاتهم بالـديون ، ولكـي لا يحـدث التلاعـب أبـداً بـالأوزان والمكاييـل ولكـي تمنـع السـرقة نهائيـاً ولكـي تطهـر الأراضـي الزراعيـة مـن القتلـة ، ولكـي لا يسـتغل الأقويـاء الأيتـام والأرامـل ولكـي يحصـل مواطنـو مدينـة لكـش علـى حـريتهم**". فـوزي، ١٩٨٧،ص ٥٨)

كمـا أهـتم سـكان بـلاد الرافـدين بنظـام الأوزان والمكاييـل والعمـل علـى مراقبتهـا إذْا اعتقـدوا ان التلاعـب بتلـك المـوازين يـؤدي إلـى عواقـب وخيمـة مـن الالهـة ،وقـد وردت ذكـر المـوازين فـي ترنيمـة الالـه شـمس [٤]، التـي تـرد كـالآتي :" **التـاجر الـذي يقـوم بالحيلـة حـين يمسـك الميـزان الـذرة والـذي يـوزن القـروض او (الـذرة) بالحـد الادنـى لكنـة يطلـب كميـة كبيـرة فـي اعـادة الـدفع فسـيأخذ اللعنـات قبـل وفاتـه** " الدوسكي،٢٠٠٨،ص١٠٤).

وقـد أتبـع السـومريون مـا يعـرف بالنظـام السـتيني فـي تثبيـت وحـدات أوزان طبقـاً لنـوع المـادة المعامـل بهـا ، وقـد بلغـت وحـدة الـوزن هـذه أهميـة بالغـة فـي التعامـل النقـدي وكوسـيلة مـن وسـائل تسـوية المـدفوعات ، وأداة لقيـاس القـيم والمبادلـة وكـان الشـيقل (gin) يمثـل اصـغر وحـدة وزن فـي التعامـل التجـاري تسـاوي مجمـوع (١٨٠)

حبة شعير (SE) أي ثلاث مجاميع من الستين لتعادل وزن (١ شيقل ١ GIN) وكان للشيقل مضاعفات على وفق النظام الستيني فكان كل٦٠شيقل يساوي ماناً واحداً، والمن يساوي(٥٠٥ غم) في أوزاننا الحالية وكان كل ست من تساوي طالنت واحد ، أي أن الطالنت الواحد يساوي ٣٠,٣ كغم من أوزاننا الحالية ، أما أجزاء الشيقل فهي الحبة ويقصد بها حبة القمح فقد كان الشيقل الواحد يتكون من ١٨٠ حبة (ولاتزال الحبة أستعمل حالياً لدى الصاغة)(كاظم ،٢٠١٦، ص١٣٤)

أما المكاييل فكانت الكور (gur) وأجزاؤه، قد خضع الكور لتغيرات عدة ابتداء من عصر السومري القديم مرورا بالعصر الاكدي حتى استقر في عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٣-٢٠٠٦ ق.م)، وكانت وحدة قياس الطول هي الذراع ومضاعفاته القصبة والحدود والحبل والميل وأجزاؤه الشبر والفتر والأصبع (سليمان، ١٩٨٨،ص٣٢٧).

وظل الوضع كما هو عليه حتى اتم للملك سرجون الاكدي (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق. م) توحيد المدن السومرية تحت حكمه فعمل على توحيد الاوزان والمكاييل فجعلها في جميع إمبراطوريته متشابهة بعدما كانت مختلفة، ويُعد هذا العمل من أهم اعماله الادارية سازونوف، ١٩٩١،ص٧٨)، ومع قيام سلالة اور الثالثة اخذ تثبيت الاوزان والمكاييل جانباً مهما في اعمال الملك اور نموا (٢١١٢ – ٢٠٩٥ق.م)إذْا يرد في مقدمة قانونه"**في ذلك الوقت .. لؤوما ومارد وكازالو وزن، ثبت السبعة ..اقر السيلا البرونزي وثبت وزن المنا وثبت وزن الشيقل الحجري والفضي** " (سليمان، ١٩٨٨،ص٣٩٧)، فضلا عن ذلك فقد أستعملت والاوزان في فرض العقوبات في سلالة اور، إذْ نصت اغلب المواد القانونية في قانون اور نمو بمبدا التعويص ومن بين تلك المواد المادة (١٥) و(١٦) و(١٧) فالمادة (١٥) نصت على معاقبة الشخص الذي اقدم على قطع قدم شخص اخر فعلية ان يدفع كغرامة عشرة شيقلات من الفضة (رشيد،١٩٨٠، ص١٩).

اما العصر البابلي القديم فقد اشارت نصوص اقتصادية عديدة ترد الموازين والمكاييل ففي رساله ترد من شخص الى سيدة يقول فيها كالتالي:" **من اربع مانات ذهب ... سيدي سيبعث لي ... من اربعة شيقلات فضة ، نصف شيقل وعشر حبات ذهب نقص**" **(الجبوري، ٢٠٠٨، ص)٢١٣.**

أما المكاييل التي استعملت لقياس مقادير الحبوب والبذور الزراعية الاخرى ، فقد استندت وحدات الكيل فيها إلى النظام العشري، والستيني ومن تلك المكاييل القا والسيلا والمشكيتم والكور ، ففي رسالة ترد من احد الموظفين الى سيده يقول فيها: "**بعث لك مع تلك الرسالة كوران وواحد بي كور شعير بسوت(بمكيال) الاله شمش الجيد. الذاهب ليكيل الشعير امامك** "(المصدر نفسه، ص ٢١٤)

وقد اولى حمورابي أهمية كبيرة بالمحافظة على الموازين والمكاييل وخصص العديد من المواد القانونية التي تمنع التلاعب بها، إذْ تشير أحدى المواد القانونية من قانونه عن عقوبة التاجر الذي يقرض حبوباً او نقودا بفائض وكيفية تلاعبه بالوزن او بالمكيال" **إذْا أقرض ذلك التاجر حبوبا أو فضة واستخدم لوزن مبلغ القرض وزنا أو مكاييل خفيفة ثم استلم مبلغ القرض بأوزان أو مكاييل ثقيلة، فسيخسر التاجر كل ما استلمه**" كما ان المادة (١٠٨) تنص على "**معاقبة بائعة الخمر التي تغش في عملها التجاري فتتلاعب بالأوزان والمكاييل والأسعار برميها في الماء** " **الدليمي، ٢٠٠٢، ص ٤١)**

اما في العصر البابلي والاشوري الوسيطان فنجد ان ملوك العصر البابلي ابقوا الاوزان كما هي ، إلاَّ ان الملك الكيشي كدشمان انليل(١٢٧٩-١٢٦٥ ق.م)[٥]، أستحدث عدة احجام للأوزان فظهر وزن أستعمل لاول لمرة ، فقد أستعمل الحبة الواحدة وزناً ومضاعفتها، كما تم الكشف عن حجر يعود إلى هذا العصر يشبه البطة أستعمل في الاوزان دون عليه (٢٢، ٣/١) وتُعد هذه الاشارة اولى

الإشارات عن هذه الاوزن ،وظل معمول به حتى نهاية الدولة البابلية الحديثة(الزبيري، ٢٠١٠،ص٢٨٥).

وفيما يخص بلاد اشور في عهدها الوسيط فقد أهتم ملوكها بتلك الاوزان والمكاييل وخصصوا لها الموظف مسؤول عن الوزن يعمل على مراقبتها وقد وردت في النصوص المسمارية السومرية (LUMI.A.DU.DU) وتقابلها في اللغة الأكدية (ha'itanu) بمعنى الموظف المسؤول عن الوزن.(الدليمي، ٢٠٠٢، ص ١٩)

ومن خلال ما سبق يتبين لنا من مدى حرص ملوك بلاد الرافدين على تحقيق أمن اقتصادي من خلال أهتمامهم بتلك الانظمة التجارية ،ولاسيما الموازين والمكاييل لكونها تشكل احدى انشطة التجارة ، كما انها أسهمت مسأهمة كبيرة بالسيطرة على الغش وعدم التزوير، كما عمل ملوك بلاد الرافدين على تعيين اشخاص تابعين للقصر الملكي على مراقبة الاسواق[٦]، والموازين وتحقيق أكبر قدر من الاستقرار الاقتصادي، كما ان تلك الموازين قد لعبت دور كبير استقرار الاقتصاد وعدم التلاعب به (الدليمي، ٢٠٠٢، ص ١٨٤)

ثالثاً: الضرائب [٧].

تُعد الضرائب من أهم التدابير التي تتخذها الدولة بغية تحقيق أمن اقتصادي للفرد والمجتمع ،وقد مثلت الضرائب مظهراً مهماً من مظاهر تطور الحياة الاقتصادية في المجتمعات قديما وحديثاً، فهي تعبر عن علاقة الدولة بالفرد بأقتطاع نقدي او عيني، تأخذه الدولة من الافراد ويتم دفعه على وفق صيغ معينة تتوافق مع حجم المادة المأخوذ منها، وعُدتَّ الضرائب منذٌ ظهورها مورداً مهماً من موارد الدولة لا يمكن الاستغناء عنها (بركات، ١٩٧٧، ص١٧)، فالسياسة الضريبية ما هي الا جزء من السياسة الإدارية لدولة والتي هي جزء من اقتصاد للدولة تسأهم في تحقيق اهداف المجتمع، وتنشيط الاقتصاد العام(دزار،١٩٩٣، ص٢٢).

وشكلت الضرائب أهمية عند ملوك بلاد الرافدين، وعكست تلك الأهمية في تنظيم الضرائب، وتخصيص موظفين يحرصون على جبايتها، فقد كان لها أثر بارز

في مجمل الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين(السعداوي، ٢٠٠٨،ص٧٧)، ومما لاشك فيه ان المعبد كان هو المسؤول عن جمع الضرائب ،إذْ كان يجلب اليه جميع الضرائب، وكان كهان المعبد مسؤولون عن تلك الضرائب، فلم تكن خاضعة لمعاير ثابته، الامر الذي ادى إلى ثقل كاهل الطبقة الفقيرة ، وكانت مدينة لكش شأنها شأن بقية المدن السومرية الامر الذي دعى الملك اورنميكا إلى اصلاحات اقتصادية شملت الضرائب العالية التي فرضت على المواطنين قبل توليه السلطة (رشيد،١٩٨٨،ص٢٠٨)، فيشير في أحد نصوصه: "**ففي الأيام الماضية ، منذٌ ان تدفقت بذرة (الإنسان) ، استولى الرجل المسؤول عن أصحاب القوارب على القوارب ، واستولى رئيس الرعاة على الحمير ، واستولى رئيس الرعاة على الاغنام ، واستولى الرجل المسؤول عن مصائد الأسماك**" (كاظم،٢٠٢٦،ص١٥٠)،فعاد التوازن الاقتصادي وخفف الضرائب وتم القضاء على الجباه المتعسفين، كما جاء ذلك في اصلاحاته "**عندما اعطى ننكرسو، محارب الاله انليل عرش لكش إلى اورنميكا .. اعاد النظام القديم وطرد المفتشين الذين يحققون في المبالغ التي تدفع ثمنا للخروف للأبيض او الحمل ، ابعد الجباه الذين يحققون في الضرائب ..ومن حدود ننكرسو حتى البحر لم يُعد هناك جابي لضرائب عندما يمدد الميت في قبرة يأخذ الكاهن ثلاث جرات من البيرة.. ثمانين رغيفاً**" مهدي، ١٩٧٥،ص١٢٠)).

اما في العصر الاكدي وبعد ان قلص الملك سرجون الاكدي (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق. م) نفوذ المعبد والكهان، وفقدوا ما كان لهم من هيمنة اقتصادية من خلال فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، اصبحت الضرائب تجبى عن طريق موظف تابع للملك يعرف – خَزان (ḫazannu) ويعرف بمصطلح مسؤول رئيس البلدة ،او محافظ مسؤول الوحدة الادارية (CAD, Ḫ, P. 163) ، اما سلالة اور الثالثة فقد سار الملك اور نمو (٢١١٣– ٢٠٦٩ ق.م)على سياسة الملك المطلق في جعل املاك المعبد والدولة تحت تصرفه وتعيين اداريين جدد ، كما ان كثيرا من تلك الاراضي كانت تابعة للدولة ،فلم تخصص منها سوى جزء صغير

للمعبد والكهنة، واصبحت الدولة هي المحتكرة للتجارة والصناعة والمراعي كما ان الضرائب كانت ترسل من المدن إلى الدولة وتودع في مخازنها المخصصة (النعيمي، ٢٠١٨،ص٦٨).

وعدة الضرائب من أهم الانظمة الداعمة للاقتصاد في العصر البابلي القديم، فقد عملت على خلق لتوازن الاقتصادي عن طريق زيادة الايرادات في اوقات الرخاء وتخفضها في اوقات الازمات الاقتصادي، ويتضح ذلك من النص الاتي " **السنة التي حرر (فيها الملك امي صادوقا) الراعي الصادق الخادم المطيع للإلهين شمش و مردوخ ديون بلده**" (العكيلي،٢٠١٨،ص٢٩١).

ولأهمية تلك الضرائب في دعم اقتصاد الممالك البابلية، فأن الملك شمشي ادد الاول قد اوجد نظام ضريبي كفؤ يؤمن خلالها جمع الضرائب ، ولاسيما ان بلاد اشور كانت تقع على أهم طرق التجارة ، وذلك من خلال تعيين اشخاص مختصين في جباية الضرائب وتحديدها ومن ثم جمعها كما هو موضح في رسالة الملك شمشي- ادد إلى الملك يسمح- ادد (١٧٩٦- ١٧٨٠ ق.م) " **بخصوص تعيين ضريبة (المكس) التي كتبت الي بشأنها لا تفرض اي ضريبة على المدينة ، جابي الضرايب سين – رابي هو من سيحدد ضريبة فيها** " **محمد، ٢٠١٤،ص٤٧).**

وبعد توحيد البلاد على يد حمورابي وسيطرته على مقدرات البلاد اصبحت الدولة هي المسؤولة عن جمع الضرائب حتى ان المعبد اصبح يدفع الضرائب من اراضيه إلى الدولة، وتجلى ذلك واضحا من نص حمورابي " **بخوص الشعير (المتعلق ب)ضريبة الحقل(الخاص) بالمعبد فان سيدي قد اعطى الامر لنا بفرض ضريبة الحقل** " **(النعيمي، ٢٠١٨،ص٧٠)**، كما ان الملك حمورابي كان يرسل موظفين مختصين يقومون بجباية الضرائب بعد انتهاء مواسم الحصاد من أجل استخدامها في الازمات الاقتصادية وفي تمويل مشاريع الدولة البابلية ويشير النص الآتي الى مدى حرص الملك حمورابي على جبي الضرائب : "**ان وقت**

الحصاد قد انتهى ، يجب أن ترسل اثنين من جامعي الضرائب مع كمية الأموال المطلوبة بصحبة موظف أو من يمثلكم" (الاحمد، ١٩٨٥،ص١٠٣)، حتى ان المعبد اصبح يدفع الضرائب بعد ان جرده من امتيازاته ويستدل ذلك من النص الاتي: " **بخصوص الشعير (المتعلق ب ضريب الحقل (الخاص) بالمعابد، فان سيدي قد اعطى الاوامر لنا بفرض ضريبة الحقل" (النعيمي، ٢٠١٨، ص٣٥).**

وفي العصر البابلي الوسيط (١٥٩٥– ١١٥٧ ق .م) أهتم ملوك هذا العصر بأمور الضريبة حتى انهم عاقبوا الموظف المسؤول عن جبايتها ،فرضوا رقابة دقيقة عليه في حال تخاذله في عملة، ووصل بهم الحد إلى جلده في حال تقاعسه عن واجبه وهذا ما جاء بالنص "**هم سوف يجلدوا جابي الضريبة المكس** " فقد كان جابي الضرائب يقوم بجباية الضريب عند بوابات المدينة ومن ثم يقوم بتسليمها إلى بيت الضرائب(المخزن) المخصص الضريبة كل حسب نوعه،او من المحاصيل الزراعية والحيوانات (المصدر نفسه،٣٥)[٨].

اما ملوك اشور في العصر الوسيط فقد حصلوا على الضرائب عن طريق الحروب التي خاضوها مع الاقوام المجاورة لهم ، إذْ كانت الغنائم والضرائب والاتاوات الواردة في النصوص الآشورية تؤخذ سنوياً من المدن والأقاليم التي سيطرو عليها، وعُدتَّ تلك المردودات احدى اهم المصادر الاساسية لتمويل خزانة الدولة الآشورية، التي ادت بدورها إلى ازدهار الحياة الاقتصادية لبلاد اشور((Oppenheim, 1964) , p166) كما فعل الملك توكلتي ننورتا الاول في اشارته لفرض ضريبة على تلك الأقوام " **ملك بلاد اشور ، في بداية حكمي ، غزوت بلاد قاني بلاد اوقومانو بلاد ايلخونيا، شاريدينا،، واستلمت سنويا في مدينتي أشور (اتاوة) بلدانهم ومحاصيل جبالهم ....، أتخذ اربعون ملكا من**

بلدان (نائيري) موضع القتال بضراوة حاربتهم وحققت هزيمتهم .. واصبحت سيد كل بلدانهم وفرضت عليهم اتاوة للابد "(احمد،١٩٩٣،ص٩٦).

النتائج:

١-ان النشاط التجاري قد ساهم قد مساهمة كبيرة في انعاس الوضع الاقتصادي لبلاد الرافدين حتى ان ملوك بلاد الرافدين القديمة قد ادركوا انهم اذا ما أرادوا ان يزدهر اقتصادهم فعليهم ان يعملوا على حماية هذا النشاط .

٢- عدت الطرق التجارية عبر تاريخها القديم عصب الحياة الاقتصادية ولما كان موقع بلاد الرافدين ملتقى الطرق التجارية ما بين قارات العالم ،لذلك سارع ملوك بلاد الرافدين على اتخاذ طرق ووسائل عدة كل حسب عمله مثل تأمين الطرق وحمايتها وانشاء قواعد وحاميات عسكرية ووسائل للراحة تؤمن سير القوافل التجارية ،فلا يوجد نشاط لتجارة بدون تأمين الطرق وادامتها حتى اضطر ملوك بلاد الرافدين من السيطرة على الكثير من المدن والدول المجاورة من اجل تأمين الطرق التجارية.

٣- لم تكن الطرق التجارية وحدها من استرعت اهتمام ملوك بلاد الرافدين بل ان المكاييل والموازيين فقد أسهمت هي الأخرى في استقرار الاقتصاد فعمل ملوك بعوامل عدة لعل من اهمها، توحيد الموازين والمكاييل وتعيين مراقبين عليها ومحاسبة المتلاعبين بها ، حتى انهم ربطوها بمعتقداتهم الدينية فقد اعتقدوا ان التلاعب بتلك الأوزان يؤدي إلى عواقب وخيمة من الالهة.

٤- تعتبر الضرائب من أهم التدابير التي تتخذها الدولة بغية تحقيق أمن اقتصادي للفرد والمجتمع ،وقد مثلت الضرائب مظهراً مهماً من مظاهر تطور الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين إذْ عملت تلك الضرائب في انجاز العديد من

المشاريع العامة وتجهيز الجيوش وتقليل الضغط الاقتصادي، كما ان ملوك بلاد الرافدين كانوا على دراية بالوضع العام في دولتهم فعملوا على خفض الضرائب في أوقات الازمات والكوارث وغيرها.

المصادر

١- الاحمد سامي سعيد، العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية ، ١٩٥٨م).

٢- احمد ،كوزاد محمد، الملك الاشوري توكلتي ننورتا الاول سيرته ومنجزاته ،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد' (كلية الاداب ، قسم الاثار، ١٩٩٣).

٣- اسراء عباس ، مملكة ابيبلا وعلاقتها ببلاد وادي الرافدين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد،(كلية الآداب، قسم الاثار، ٢٠٠٣م)، ص ٣٢.

٤- بركات ، عبد الكريم صادق ، النظم الضريبية النظرية والتطبيق ، (بيروت : دار الجامعية ، ١٩٧٧م).

٥- جاسم ، زهير ضياء الدين سعيد ، نظام الاتصال في بلاد اشور، رسالة ماجستير غير منشور، جامعة الموصل ، (كلية الآداب، قسم التاريخ ، ٢٠٠٠م).

٦- الجبوري ،سالم ، المضامين السياسية والاقتصادية في العصر البابلي القديم ،اطروحة دكتورا غير منشورة، جامعة الموصل ،(كلية الآداب ، قسم الاثار ،٢٠٠٨م).

٧- الجميلي ،المعارف الجغرافية ،(دهوك : دار المشرق ، ٢٠١١م).

٨- دراز ، حامد عبد المجيد، النظم الضريبية ، ط٢،(بيروت: دار الجامعة ، ١٩٩٣م).

٩- دياكونوف، ظهور الدولة الاستبدادية في العراق القديم ، في العراق القديم دراسة في الاحوال الاقتصادية ،تر: سليم طه التكريتي، (بغداد: دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٥م).

١٠- ديبونت ، الاراميون ، تر: البير ابونا ، مجلة سومر، بغداد، مجلد ١٩، ،٢، ١٩٦٣م، ص ٦٨.

١١- الدليمي ، مؤيد محمد سليمان جعفر، الاوزان في العراق القديم في ضوء الكتابات المسمارية المنشورة وغير منشورة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل، (، كلية الآداب ، قسم الآثار،٢٠٠٢م).

١٢- الدوسكي، هيفي ، سعيد عيسى ، الازمات الاقتصادية في العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة دهوك ،(كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠٠٨م).

١٣- الحلو، صراع المالك في تاريخ سوريا من العصر السومري حتى سقوط المملكة التدمرية ،(بيروت ، بيسان، ١٩٩٩م).

١٤- الحمداني، ياسر هاشم حسين علي، وسائط النقل في العراق القديم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل،(كلية الآداب ،قسم التاريخ ، ٢٠٠٢م).

١٥- الدليمي ،العلاقات العراقية المصرية في العصور القديمة، رساله ماجستير غير منشورة ، جامعة المستنصرية ، (مركز الدراسات العليا ، قسم التاريخ ، ١٩٨٨م)

١٦- الراوي، شيبان ثابت مصطفى، التجارة عبر الفرات في بلاد الرافدين، مجلة جامعة الانبار للعلوم ، عدد٢، ٢٠١٢م

١٧- رشيد ،فوزي ، اوروكاجينا ،(بغداد : دار الشؤون الاطفال ، ١٩٨٧م).

١٨- رشيد، فوزي، الشرائع العراقية القديمة، (بغداد : دار الحرية، ١٩٨٠م).

١٩- رشيد ، فوزي، (الشرائع) العراق في مواكب الحضارة ، (بغداد: دار الحرية ، ١٩٨٨م) ج١.

٢٠- رشيد، فوزي ، نرام سين ملك جهات العالم الاربعة،(بغداد : وزارة الثقافة والاعلام دار ثقافية للأطفال، ١٩٩١م).

٢١- الزبيري ، مها حسن رشيد ، الحياة الاقتصادية في العصر البابلي الوسيط ، (الفترة الكيشية) ، اطروحة دكتورا غير منشورة ، جامعة بغداد ، (كلية الآداب ،قسم التاريخ ، ٢٠١٠م).

٢٢- ساكز، هاري، عظمة بابل، تر:عامر سليمان،(الموصل: مركز البحوث الاثاري والحضاري، ١٩٧٩م).

٢٣- ساكز ، هاري، قوة اشور، تر : عامر سليمان ، (بغداد: المجمع العلمي: ٢٠٠٠م).

٢٤- سازونوف ، ماتفييف ، حضارة ما بين النهرين العريقة ، تر : حنا ادم ، (دمشق : مطبعة دار المجد ، ١٩٩١م).

٢٥- سليمان ،عامر، جوانب من حضارة العراق القديم(بغداد : دار الحرية، ١٩٨٣م) .

٢٦- سليمان،العلاقات السياسية، موسوعة حضارة العراق،(بغداد : دار الحرية، ١٩٨٥م)،ج٢.

٢٧- سليمان ،عامر، النظم المالية والاقتصادية ، الاصالة والتاثير العراق في مواكبة الحضارة (بغداد : دار الحرية ، ١٩٨٨م)، ج١ .

٢٨- سعيد ،صفوان سامي، حقوق رعاية الملكية الاشورية في عصرها الحديث، مجلة كلية الآداب، الموصل، العدد٥١، ٢٠٠٨م.

٢٩- ابو العاصي، علم الدين ، اقتصاد مملكة ماري في القرن الثأمن عشر ق . م ، (دمشق : منشورات وزارة الثقافة ، ٢٠٠٢م) .

٣٠- علي، ياسر هاشم ،جوانب من خدمات المدن في العراق القديم،(عمان: دار زهران ، ٢٠١٤م).

٣١- العكيلي، فوزية ذاكر عبد الرحيم ، وسائد النقل المائية في ضوء النصوص المسمارية حتى سقوط بابل ٥٣٩ق.م ، رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة بغداد،(كلية الآداب، قسم الاثار ، ٢٠٠٨م).

٣٢- العكيلي ،فوزية ذاكر، الدلالات الحضارية للصيغ التاريخية للممالك ايسن لارسا وبابل في العصر البابلي القديم ، اطروحة دكتوره اغير منشورة ، جامعة بغداد، (كلية الآداب ، قسم الاثار ،٢٠١٤م).

٣٣- فائز هادي علي ، المهن الاقتصادية في العصر البابلي القديم رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بعداد،(كلية الآداب،قسم الاثار ، ٢٠٠٨م).

٣٤- كاظم ، رجاء جواد ، طبيعة النظام السياسي في العصر السومري ، اطروحة دكتورا غير منشورة ، جامعة بغداد،(: كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠١٦م).

٣٥- محمد ، الحملات العسكرية الآشورية دوافعها ونتائجها في ضوء النصوص المسمارية المنشورة ،اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الموصل ،(كلية الآداب ، قسم الاثار، ٢٠٠٦م).

٣٦- مصنوعة ، احمد، الأمن الاقتصادي العربي الواقع والتحديات ، مجلة الريادة الاقتصاديات الاعمال ، الجزائر، مجلد ٢، عدد ٣، ٢٠١٦م.

٣٧- لمياء محمد علي كاظم ال مكوطر ، بلاد بابل (كاردونياش) في العهد الكشي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ،٢٠٠٤م).

٣٨- مهدي ، محمد علي ، دور المعبد في المجتمع العراقي من دور العبيد حتى نهاية دور الوركاء ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، (كلية الآداب ،قسم الاثار ، ١٩٧٥م) .

٣٩- مهند عاشور شناوة ، مجمع الالهة في حضارة وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ،(كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٠م).

٤٠- النعيمي، هيفاء احمد محمد، الضرائب في المصادر المسمارية، اطروحة دكتورا غير منشورة ، جامعة بغداد (كلية الآداب، قسم الاثار ، ٢٠١٨م).

٤١- نوالة احمد محمود ، مدخل الى الحياه الاقتصادية في دولة اور الثالثة، (بغداد: الهيأة العامة للاثار والتراث، ٢٠٠٧م).

المصادر الاجنبية:

42- J. D. Hawkins, The Neo-Hittite in Syria amd Anatolia, CAH, Vol-111 ,(Cambridge; Cambridge University Press,1982).

43- King, L, A History of BAbyion" , London : Plutarch, 1919Leemeans ,W.E ,Legal and Economic Records From the kingdom of Leiden,1954,

44- Leemans W.F.,The lmporlance of TRADE, DANS Iraq, Vol.39-lssue1London 1977m

45- RIME ,VOI.32,

46- Maxwell. K.R, Assyrian source of iron, Iraq, Vol. XXXVI, 1974.

47- Oppenheim, A. Ancient Mesopotamia,(Chicago:University of Chicago , 1964) .

الهوامش:

(١) كانياش او قانش: تسمى حالياً كول تبة تقع شرق تركيا في الاناضول كانت احدى أهم مراكز التجارية في اسيا الصغرى ، عثر فيها على العديد من الالواح المسمارية تضم العديد من المعاملات التجارية وعقود قانونية ،جاسم ، اسراء عباس ، مملكة ابيبلا وعلاقتها ببلاد وادي الرافدين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد،(كلية الآداب، قسم الاثار، ٢٠٠٣م)، ص ٣٢.

(٢) تشمل وسائل النقل البرية منها والمائية ، اما البرية فهي الحيوانات مثل الحمير والثيران والبغال والخيول والجمال اما وسائل النقل المائية فتشمل القوارب والسفن والقرب المنفوخة ... الخ . لتفصيل ينظر : الحمداني ، وسائط النقل في العراق القديم،ص٧٠.

(٣) وردت لفظة الموازين فقد وردت في اللغة السومرية بصيغة (gisERIN) وتقابلها في اللغة الأكدية (zibanitu). الدليمي ، مؤيد محمد سليمان جعفر، الاوزان في العراق القديم في ضوء الكتابات المسمارية المنشورة وغير منشورة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل، (، كلية الآداب ، قسم الآثار،٢٠٠٢م)، ص١٨.

(٤) اله الشمس: اطلق عليه تسمية اوتوا بالغة السومرية ، وقد عده السومريون الاله القاضي بين الالهة والبشر ، ورمز الحق والعدالة. لتفضيل القطبي ، مهند عاشور شناوة ، مجمع الالهة في حضارة وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ،(كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٠م) ، ص٢١٣.

(٥) كدشمان انليل: يُعد هذه الملك من ابرز ملوك الكاشيين كانت له علاقات وطيدة مع معظم ملوك الشرق الادنى القديم ، لقب نفسه ب ملك سومر واكد وملك الجهات الاربعة. حكم خمسة عشر عاماً .الحسيني، ،لمياء محمد علي كاظم ال مكوطر ، بلاد بابل (كاردونياش) في العهد الكشي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ،٢٠٠٤م)،ص٣٦.

(٦) وردت لفظة هذه المهنة باللغة السومرية (KI.LAM) ويرادفها بالاكدية (mahir (rab) ويسمى ايضا مفتش الاشواق وهو الشخص المسؤول عن تنظيم العملات التجارية التي تحدث داخل السوق من عملات بيع وشراء ، كما ان عليه مراقبة الموازين ومسؤول عن كافة المنازعات التي قد تحدث داخل السوق ، وتحديد الأسعار والعمل على تثبيتها، الحسناوي ، فائز هادي علي ، المهن الاقتصادية في العصر البابلي القديم رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بعداد،(كلية الآداب، قسم الاثار ، ٢٠٠٨م)، ص ١٨١.

(٧) وردت لفضه ضرائب في اللغة السومرية ، (LÚ.N ÍG. K ÚD.DA) ترادفها باللغة الاكدية (makāsum). المتولي ، نوالة احمد محمود ، مدخل الى الحياه الاقتصادية في دولة اور الثالثة، (بغداد: الهيأة العامة للاثار والتراث، ٢٠٠٧م)، ص٣٨٣.